عَوْدة الْبَرْبر إلى الحكم

تتدلى أحسن الممالك نظامًا وأضبطها حكمًا إلى الفوضى والاضطراب، حينما تزول العزيمة التى كانت تهديها سواء السبيل، وبهذه الحقيقة وأمثالها تمسك من يرون أن خير أنواع الحكم أن يحكم الشعب نفسه، وقد قيل: إنك إذا قدت الأمة بخيط فوهى أو انقطع، فإنك لا تدرى فى أى طريق ستذهب الأمة، وهذه النظرية صادقة على إطلاقها، فمن الشعوب ما هو دائمًا فى حاجة إلى خيط يقوده، وليس فى العالم شعب يستغنى تمام الاستغناء عن الاهتداء بعقل مسيطر، على أن هذا الاستغناء ليس فى منفعة الشعوب فى شىء إلا إذا عدت الركود مثلًا فى الحكم صحيحا.

والأندلس فى أية حال لم تستطع الاستغناء عمن يقودها، فإذا مات قائدها وحاكمها سقطت معه الدولة، فهى على حد ما قيل: «حينما يسقط سيزار العظيم، فإننى وأنت وجميع الأمة نسقط معه»، ولم يكن ذلك فى الأندلس عن محبة للحاكم أو انعطاف نحوه، ولكن كان عن عجز وخور، فإن كثرة العشائر المتنازعة والقبائل المتنافسة جعلت الوصول إلى ما يشبه الاستقرار فى حكم الأندلس مستحيلا، ولن يكبح من جماح هذه العشائر أو يفل من غرب هذه القبائل إلا يد قوية.

واعتبر هذا بما تقرأ فى تاريخ إرلندة عن العداوة المتأصلة بين سكان الشمال وسكان الجنوب - تعلم أن العرب ليسوا وحدهم الذين رأوا أن من الاستحالة حكم أمة تختلف فيها العناصر والأديان بالسهولة التى تحكم بها أمة متماثلة الأفراد فى الجنس والدين. وتاريخ الأندلس كما قصصنا عليك كان حوادث متعاقبة فى صعود وهبوط، فقد شهدنا فيه أول الأمر غارة عنيفة رائعة لجنود موهوبين، انتهت بفتح لم يكن منتظرًا ولا مرتقبًا، وما كاد يتم فتح الجزيرة، حتى رأينا العشائر المتنافرة التى تجمعت لهذا الفتح المبين تنطلق من عقالها، وتدمر ثمرات الفتح التى جناها السيف واغتصبها الإقدام.

ثم نرى الشمرى الذى خلق ليكون ملكًا - وهو عبد الرحمن الداخل - فنرى الأندلس وقد عادت مرة أخرى إلى وحدتها وقوتها.

وكان من عادة الفرس عند البدء بمخاطبة ملوكهم أن يقولوا: «أيها الملك أبقاك الله» وهذا الدعاء يوحى إلى النفس بأنه لو صح وتحقق لكان حلا لكثير من المشكلات السياسية، على شريطة أن يكون المدعو له بالخلود ملكًا صالحًا. وأول ملك بالأندلس لم يكن بطبيعة الحال خالدًا، وكان من أثر موته ما كان يحصل دائمًا حينما يزول الضغط القوى الحازم، فارتكست الأمة فى الفوضى والحروب الأهلية، ثم جاء ثانية الملك الملهم لإنقاذ الأمة مما هى فيه، وهو الخليفة العظيم، فألزم الناس القانون والنظام فى جميع أرجاء

الأندلس، وهزم الواثبين على المملكة، وداس العصاة بقدميه، وبقيت الأندلس خمسين عامًا فى عهده فردوس سلام وازدهار، ولو قدر لعبد الرحمن الناصر أن يكون خالدًا فى هذه الدنيا لبقى السلام ورفرفت الطمأنينة على ربوع الأندلس إلى اليوم، وما كنا نسمع بشىء مما حاق باليهود والعرب فى ديوان التفتيش من القتل والقسوة الوحشية، ولا بشىء من أخبار الكارلوسيين[1].

ومن المحزن أن هذا الدعاء ببقاء الملوك الصالحين لا يمكن أن يتحقق، ولكن الخليفة العظيم لم يترك المملكة خلوًا ممن يصلح لقيادتها، فإن إسبانيا أنقذت بالملوك مرتين، والآن ينقذها ويجمع شتاتها كبير الوزراء وهو المنصور الذى لا يغلب، والذى نفذت سلطته إلى كل زاوية من زوايا الأندلس. ولكن المنصور أيضًا لم يكن خالدًا، وحينما مات «ودفن فى الجحيم» كما كان يأمل الراهب المتبتل - أصبحت الأندلس التى بلغت فى عهده قمة الثروة والقوة وعاشت فى كنف السلامة والنظام، فريسة للقوى المتنافرة التى دفنتها عزائمه وسطواته فى جحورها، ففى غضون ثمانين سنة كان يمزق الأندلس تحاسد الزعماء وظلم العتاة من البربر والعرب والصقالبة والإسبان.

نعم إن جذور الحزبية كانت قد اجتثت من أصولها بمرور السنين، وذهب عهد التفاخر بالأنساب والقبائل، لأن الناس نسوا

---

(١) هم أنصار الدون كارلوس البربونى ولد سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٥٥ وهو الابن الثانى لشارل الرابع، وكان يدعى ملك إسبانيا.

أنسابهم، ومع ذلك بقى بالأندلس من التنافس الشخصى والجنسى والدينى ما يكفى لجعلها جحيما أرضيًا من النوع الذى كان يتمنى الراهب المؤرخ أن يدفن المنصور فيه.

واستطاع ابن المنصور وخليفته، أن يصون وحدة المملكة فى مدى ست سنوات، تلاها انهمار سيل جارف من الطامعين المخاطرين، والخلفاء المتنافسين، والأدعياء الوقحين، وكان الإسبان الذين يمثلون جمهرة الأمة يؤثرون أن يحكمهم ملك، ويحبون أن يتعاقب الملوك من أسرة واحدة، ويذكرون بالإعجاب ما كان للدولة الأموية العظيمة من أثر عظيم، ولم يكن من رأيهم فى الحكومة أن يكون المسيطر فيها وزيرًا كيفما كان عادلًا صالحًا، لأن الملك فى زعمهم يجب أن يحكم الأمة بنفسه، لذلك رفعوا راية العصيان على ابن ثان للمنصور، وزاد فى غضبهم أنه أعلن حقه فى وراثة العرش، فمضوا إلى الخليفة هشام المؤيد وحتموا عليه أن يقبض على أزمة الحكم بيديه الضعيفتين الواهنتين.

وقد صعب على هشام المسكين أن ينزع فجاءة من عزلته فى القصر بعد أن قضى فيها ثلاثين عامًا، سجينًا مغتبطًا بسجنه، فتوسل إليهم ألا يطلبوا منه المستحيل، ولكنهم أصروا على ما يطلبون، فأطاعهم على الرغم منه، غير أنه حينما ظهر للناس جميعًا أن هذا الرجل الكهل كان أضعف من طفل، طلبوا إليه أن يعتزل، وأحلوا مكانه رجلا من أسرته، وكان سقوطه فى الحقيقة نهاية الدولة الأموية بالأندلس.

ثم جلس على العرش خليفة بعد خليفة فى مدى عشرين عامًا، فكان أحدهم لعبة فى أيدى القرطبيين، وآخر لعبة فى أيدى الحراس من الصقالبة، وثالث لعبة فى أيدى البربر، ورابع كان صورة تخفى وراءها مطامح أمير إشبيلية، ولكنهم كانوا جميعًا لعبًا لبعض الأحزاب، ولم يكن لهم مظهر من النفوذ، وقد شهد بهو القصر قتلًا بعد قتل كلما تلا خليفة خليفة، وأخفى مرة أحد هؤلاء الخلفاء المساكين البائسين نفسه فى فرن حمامه، وحينما عرف مكانه جر وذبح أمام الخليفة الجديد الذى لم يأت بعد دوره وإن كان قريبًا.

ثم ألزم هشام المؤيد المسكين - الذى نشأه المنصور وأمه «صبح» فى طفولة دائمة - أن يمثل دوره فى صندوق الدنيا، فوضع على العرش ثم خلع، فبدّل بقيده الحريرى فى عزلته بين الفواتن من نساء القصر، حيطانًا مظلمة لسجن حقيقى، ولا يعرف إلى الآن ما جرى له بعد ذلك، فنساؤه يعلن أنه جاهد للفرار من سجنه والتجأ إلى آسيا أو مكة، لم يغر العرش ذلك الملك البائس بشىء من مغرياته، لأنه كان يعشق العزلة والانقطاع إلى العبادة، ولا بد أن يكون قد عرف أن بقاءه بالأندلس سيشجع مطامع أنصاره، وأن ذلك سيؤدى حتما إلى النزاع والتفرقة، فمن المعقول إذًا أن يكون قد آثر أن يقضى بقية أيامه بمكة للعبادة والتبتل.

ثم ظهر دعىّ يشبه هشاما تمام الشبه، وزعم أنه هشام المختفى وادعى ملك إشبيلية، فاعترف به حاكمها لأنه رأى فيه لعبة صالحة فى يديه[1] ولكن هشامًا الحقيقى اختفى إلى الأبد ولم يسمع إنسان عنه شيئًا بعد اختفائه.

والذى جرى لهشام المعتد بالله عند عزله يصور لنا ما وصل إليه خلفاء بنى أمية التاعسون من الذلة والمهانة بعد أن تركوا زمامهم للبربر المتوحشين، أو الصقالبة يلعبون بهم كما يلعب بقطع الشطرنج، فقد أمر رؤساء قرطبة أن يجر هذا الخليفة الرفيق الرقيق العاطفة هو وأسرته إلى سجن تحت الأرض مظلم متصل بجامع قرطبة، فجلس الخليفة فى هذا السجن الدامس الظلمة يرتعد من البرد ويتسمم بهوائه الفاسد من العطن، وقد احتضن ابنته الصغيرة وأحاط به نساؤه يبكين ويولولن ويقضقضن فى زمهرير قارس، وقد اشتد الجوع بالسجناء بعد أن تركهم السجانون القساة ساعات دون أن يفكروا فى إطعامهم، ثم جاء الشيوخ ليبلغوا هشامًا حكم المجلس الذى اجتمع فى عجلة ليفصل فى أمره، ولكن الخليفة المسكين الذى كان يجهد فى أن يبعث شيئًا من الدفء إلى ابنته التى كان يحملها بين ذراعيه قاطعهم قائلًا:

«نعم نعم. إنى سأخضع إلى حكمهم كيفما كان، ولكنى أسألكم

---

(١) المعروف أن محمد بن عباد أمير إشبيلية هو الذى ادعى وجود هشام ثانية كذبًا وتمويهًا ليستعين بهذه الحيلة على أمره ويهدد خصومه.

الله تعالى أن ترسلوا إلى شيئًا من الخبز ... إن هذه الطفلة الصغيرة ستموت بين يدى من الجوع» فتأثر الشيوخ لأنهم لم يريدوا أن يعذب الخليفة هذا التعذيب، وأمروا فأحضر إليه الخبز، ثم استأنفوا الكلام قائلين: «يا مولانا إن المجلس قرر أن تؤخذ عند الفجر لتسجن فى قلعة كذا».

فأجاب الخليفة: «فليكن، وليس لى الآن إلا رجاء واحد، هو أن تأمروا لنا بمصباح، لأن ظلمة هذا المكان الموحش تزعجنا وتخيفنا» ... وارحمتاه ... لقد وصل الذل والشدة بحاكم المسلمين الزمنى والدينى بالأندلس إلى هذا الحضيض وهو أن يستجدى خبزًا وشمعة[1]!

وأمثال هذه الكوارث كانت كثيرة بقرطبة، فكل ثورة كان لها جناها المر من القتل والإرهاب، فإن أهل قرطبة الذين ازداد عددهم كانوا ينزعون إلى الاستقلال وفرض إرادتهم على الحكام، وهذا الاعتداد بالنفس كان نتيجة ثروة الأمة، ونمو التجارة والصناعة فيها.

فحينما أسقطوا أسرة المنصور من الحكم ثار العامة كعادتهم وشفوا غليل غضبهم بنهب قصرالمنصور البديع الذى بناه فى ربض قرطبة ليكون مقرًّا له ولرجال حكومته. وبعد أن انتهبوا ما فيه من

---

(١) لحق المعتد بالله بعد خروجه من السجن بابن هود وأقام عنده ومات فى لاردة سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م.

الكنوز التى لا تقدر بثمن تركوه طعمة للنيران، واستمرت المذابح والنهب والاغتيال أربعة أيام لا ينهنه من حدتها أحد، وأصبحت قرطبة مجزرًا.

وحينئذ جاء دور البربر، وانتهى حكم الصقالبة الجبارين بحكم البربر القساة الذين سمنوا ونعموا بانتهاب المدينة، فحيثما سار هؤلاء البربر سار القتل والنهب وسارت النار فى إثرهم، فكم نهبوا من قصر ثم أحرقوه، وقد لاقت منهم مدينة الزهراء الجميلة التى كانت ريحانة الخليفة العظيم شر ما يلاقى، فقد استولوا عليها بخيانة ثم انتهبوها ثم أشعلوا فيها النيران، ولم يبق منها من بدائع الفن الرفيع التى زينها بها الخليفتان إلا كومة من حجارة سفع، ووضعوا السيف فى حاميتها وفر سكانها معتصمين بالمسجد، ولكن البربر الذين خوت قلوبهم من الخشية والرحمة أحاطوا بهم، وذبحوا فى بيت الله الرجال والنساء والأطفال (سنة ١٠١٠).

وفى هذا الوقت استقلت الولايات التابعة للخلافة بعد أن حطم الصقالبة والبربر العاصمة، ووضعوا على العرش خليفة بعد آخر، ونقلوا الخلافة من الأمويين إلى بنى حمود، أو حاولوا تجربة حكم البلاد بمجلس يؤلف من الزعماء[1]، فأصبح لكل مدينة أو مقاطعة

(١) كما فعل أبو الحزم بن جهور: فإنه حكم مملكة قرطبة حكمًا يشبه الحكم الدستورى من سنة ٤٢٢ إلى سنة ٤٣٥ فكان الذى يقوم بالحكم جماعة من كبار رجال الدولة، ولما مات قام ابنه أبو الوليد بالأمر بعده على هذا التدبير إلى أن مات سنة ٤٤٣.

أمير مستقل، وذهبت فى الهواء تلك الوحدة التى جمع بها المنصور مختلف الأهواء والأحزاب، ولم يرتح الإسبانيون أنفسهم لهذا الانتقال السريع، وإلى تمزيق الدولة إلى ولايات صغيرة، فرأوا والحزن ملء قلوبهم ما صارت إليه بلادهم، وكيف أصبحت نهبًا مقسمًا بين الغرباء. فقد نعم البربر بالجنوب، وأخضع الصقالبة الشرق، أما البقية فقد سقطت بأيدى بعض محدثى النعمة والنفوذ، أو بعض الأسر القديمة التى نجت من ضربات عبد الرحمن الناصر أو المنصور القاصمة.

وكانت قرطبة وإشبيلية - وهما أعظم مدن الأندلس - تحكمان حكمًا جمهوريًا فى الصورة لا فى الواقع، لأن سلطة رئيس المجلس كانت تشبه سلطة الإمبراطور كل الشبه، وحكم فى النصف الأول من القرن الحادى عشر نحو عشرين أسرة مستقلة فى نحو عشرين مدينة أو مقاطعة، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف، وبينهم: بنو عباد بإشبيلية، وبنو حمود بمالقة والجزيرة، والأدارسة بغرناطة، وبنو هود بسرقسطة، وكان أقوى هؤلاء بنى ذى النون الذين ملكوا طليطلة، وحكموا بلنسية، ومرسية، والمرية.

وقد أحسن بعض هؤلاء الملوك الحكم وإن كان أكثرهم عتاة جبارين، غير أنه مما يعجب له أنهم كانوا جميعًا غطارفة مثقفين يعضدون العلم والأدب، وكانت قصورهم مثابة للشعراء والمغنين، فقد كان المعتضد عالمًا أديبًا شاعرًا، ولكنه نصب ببستانه خشبًا

علق فوقها رءوس أعدائه الذين قضى عليهم، وكان يستبشر ويبتهج برؤيتها كل يوم.

وقصارى القول: إن المملكة كانت فى حالة من الفوضى والاضطراب تشبه ما وصلت إليه عند تولية الخليفة الناصر. نعم، إنه لم يقم بها عصيان من المسيحيين كما كان من ابن حفصون أيام الناصر، ولكن الفوضى كانت عامة، والخطر من سقوط الدولة وتحطمها كان بارزًا للعيان. فإن نصارى الشمال استجمعوا للوثوب، ورأوا الفرصة سانحة فهموا لاهتبالها، لأن ألفونسو السادس (الأذفونش) الذى وحد تحت إمرته أستورياس، وليون، وقشتالة، كان قد فهم ما يجب أن يفعله تمام الفهم، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمد حبله للوك الطوائف مدًّا كافيًا، ليشنقوا به أنفسهم، لأن هؤلاء الطغاة الذين لم ينظروا فى العواقب، ولم يعنوا إلا بأنفسهم، ولم يتركوا جهدًا إلا بذلوه فى إضعاف منافسيهم - كانوا يجثون عند قدمى ألفونسو لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين - لذلك تقربت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونسو بتقديم الإتاوات، وكان ألفونسو يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته، لأنها ثمن عطفه وحمايته، ولأنه كان يريد أن يرضخ المسلمون من المال، ما يكفى لمحوهم ومحو آثارهم من إسبانيا.

وقد بذل ملوك الطوائف هذه الإتاوات للاستعانة بجيوش ألفونسو، أو للخوف من غاراته العنيفة التى كان يشنها فى كل مكان، حتى لقد وصلت جنوده إلى قادس.

وكان شمال إسبانيا فقيرًا ممحلا، وكان من أضاحيك القدر أن يجمع ألفونسو من ملوك المسلمين ما يعد به العدة لدمارهم، على أنه مهما اختلف هؤلاء الملوك وتحاسدوا، فقد كان لصبرهم على ألفونسو حد يقفون عنده، فإنهم تيقظوا من سباتهم وأحسوا بالخطر المحدق بهم، وعملوا على دفع الكارثة عنهم حينما علموا أن ألفونسو اخترق الأندلس على جواده آمنًا مطمئنًّا حتى وصل إلى أعمدة هرقل فنزل ليبترد فى المحيط، وحينما رأوا أنه وضع حامية تزيد على اثنى عشر ألفًا من الجنود الشجعان فى حصن ليط، وهو فى وسط بلاد المسلمين ومنه كانت تخرج جنوده لتعيث وتنهب وتغير، وحينما علموا أن لذريق البيفارى أو السيد الكمبيدور[1] احتل بلنسية مع القشتاليين، ونهب ما حولها من الأرض حتى صيرها قفرًا يبابًا. وحينما ظهر لهم جليًّا أن ألفونسو لا يقصد إلا أن يعيد إسبانيا إلى المسيحية وأن يستأصل شأفة المسلمين.

ولكن ملوك الطوائف كانوا على الرغم من تفاقم الخطب أضعف من ذات خمار، وكانوا فى يأس من توحيد كلمتهم وتواثقهم على

(١) يسميه صاحب نفح طيب القنبطور.

مكافحة العدو، لكثرة ما بينهم من تحاسد وتنافس وغيرة. لذلك صاروا إلى ما ليس منه بد، وهو دعوة الغرباء إلى عونهم.

وقد رأى بعضهم ما فى هذه الدعوة من الخطر المحيق، ولكن المعتمد بن عباد[1] أسكتهم بقوله: «لأن أكون سائق جمال فى صحراء إفريقية، خير من أن أرعى الخنازير فى قشتالة!!». ولم تكن المعونة التى التمسوها بعيدة عنهم، فقد شبت ثورة فى شمال إفريقية انبثق منها مذهب متعصب جديد سمى أصحابه بالمرابطين، وقد تغلب هؤلاء المرابطون على المملكة جميعها من الجزائر إلى السنغال، وكانوا من طابع طارق وأصحابه، وكانوا على أتم أهبة لاجتياز البحر والتغلب على إسبانيا الخصيبة، وأظهروا للناس أن هذا الغزو مكرمة منهم وجهاد فى سبيل الله، ولم تبدر منهم بادرة تدل على رغبتهم فى الأندلس، غير أنهم نزلوا بإسبانيا، ومن الهين أن ندرك أنهم نزلوها لتكون دار إقامة.

وحينما وصل المرابطون إلى الأندلس كأرجال الجراد ليلتهموا المملكة التى قدمت نفسها لهم طعامًا، كانت الطريق مذللة أمامهم، وابتهج الأندلسيون حينما رأوا فيهم ساعدًا أزلَّ مفتولا، جاء ليمحو الفوضى التى بددت هناءتهم منذ أن مات المنصور العظيم، أما ملوك الطوائف أو صغار الطغاة فمنهم من دعاهم للإقامة ببلاده، ومنهم

---

(١) أشهر ملوك الطوائف، شاعر، أديب، شجاع. أسره ابن تاشفين ومات بالمغرب سنة ٤٨٨هـ.

من لم يستطع مقاومتهم فصبر على مضض، ولكنهم اغتبطوا جميعًا بكبح القشتاليين وكسر شوكتهم، وعندما وصل يوسف بن تاشفين ملك المرابطين[1] إلى الأندلس، وتملك مدينة الجزيرة لتكون ميناء له وقاعدة لجنوده، اخترق الولايات بجيوشه حتى التقى بألفونسو عند الزلاقة بالقرب من بطليوس، في الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م / ٤٧٩ هـ وصاح ألفونسو حينما رأى جيش الإسبان اللهام: «بمثل هؤلاء أحارب الشياطين والجن والملائكة». على أنه مع هذا التجأ إلى حيلة ليدهم بها أعداءه من البربر والأندلسيين على غرة، ولكن يوسف لم يكن من الهين خداعه، فأحاط في مهارة وحذق بجيش القشتاليين من الأمام والخلف، ووضعهم بين نارين، فتحطم القشتاليون وهزموا شر هزيمة على الرغم من المقاومة العنيفة وأساليب الحرب التي برع فيها هؤلاء الجنود المدربون، وفر ألفونسو - وما كاد يستطيع الفرار - بنحو خمسمائة فارس، وترك آلافًا مؤلفة من خيرة جنوده في الميدان. وبعد هذا النصر المبين عاد يوسف بن تاشفين إلى إفريقية، وترك بالأندلس ثلاثة آلاف من جنوده لمعاونة الأندلسيين؛ لأنه وعد ألا يضم الأندلس إلى مملكته، وبر بهذا الوعد إلا في جزيرة طريف فإنه اختارها لنفسه.

---

(١) خلف ابن عمه على بلاد المغرب فاستقر له ملكه ودانت بلاده، وكان شجاعًا داهية متشددًا في الدين، توفي سنة ٤٩٣.

فرح الأندلسيون بمقدمه وأطروا شجاعته، وابتهجوا بنجاة بلادهم، وأعجبوا بسذاجته وتقواه، إذ رأوا أنه لا يعمل عملا إلا بعد استشارة الفقهاء، حتى إنه أبطل الضرائب بإسبانيا إلا ما أقره عمر بن الخطاب فى عهود الإسلام الأولى، ولكن طبقة المتعلمين بالأندلس كانت تسخر من جهله وجفوة أخلاقه، فلم يكن يحسن العربية، ولم يكن يدرك مرامى الشعراء إذا أنشده شاعر قصيدة فى مدحه، وليس هذا بالنقص اليسير فى رأى الأدباء الأندلسيين الذين لا يغفلون عن إنشاد الشعر والاستشهاد به ولو كانوا فى بحر من الدماء، فلم يكن يوسف فى أعينهم إلا بربريًّا، غير أن نقدهم لثقافته لم يكن له وزن ما داموا فى حاجة إلى سيفه، أما جمهرة الأندلسيين ففكروا فى رفاهيتهم أكثر مما فكروا فى علمه، وكانوا على استعداد لقبوله مسرورين ملكًا على الأندلس، وفى سنة ١٠٩٠ م / ٤٨٣ هـ استجدى ملك إشبيلية عون المرابطين ليصدوا عنه غزوات المسيحيين الذين استمروا فى عدائهم وطفقوا يرسلون غارات مستمرة من حصن ليط.

أجاب ابن تاشفين الدعوة مظهرًا التثاقل وعدم الرغبة، ولكنه فى هذه المرة وجه هجومه إلى ملوك الطوائف وإلى نصارى قشتالة على السواء، وملأ الملوك الأغبياء أذنيه بشكوى بعضهم من بعض وخيانة بعضهم لبعض حتى عرفهم يوسف جميعًا، ولم يثق بهم جميعًا. وكان يعتمد على الأمة وعلى الفقهاء الذين أحلوه سريعًا من

عهده بألا يضم إليه الأندلس، وغالوا فأدخلوا عليه: أن مما يجب عليه - إرضاء لربه - أن يعيد السلام والرفاهية إلى هذه البلاد المنكوبة.

أطاع ابن تاشفين نصيحة الفقهاء، لما كان يخالجه من الطموح فى ملك إسبانيا الذى كان يكتمه ويخفيه، فشرع فى إخضاع إسبانيا قبل انتهاء سنة ١٠٩٠ فدخل غرناطة فى نوفمبر، ووزع على قواده الكنوز العجيبة التى لم يروا مثلها أو ما يقرب منها فى حياتهم من الماس والدر والياقوت والجواهر الثمينة، والحلى الذهبية والفضية، والكئوس الزجاجية وعتاق البسط، وغير ذلك مما لم يسمع به من النفائس، ثم سقطت جزيرة طريف فى ديسمبر، وشهدت السنة التالية سقوط إشبيلية وغيرها من كبار مدن الأندلس، وجرد ألفونسو جيشا يقوده البرهانس فهزمه المرابطون، وأصبح القسم الجنوبى فى أيديهم إلا مدينة بلنسية التى لم تفلح فيها محاولة ما دام السيد الكمبيدور يتولى الدفاع عنها، وفى سنة ١١٠٢ م / ٤٩٥ هـ سقطت بلنسية بعد موته، فغدت الأندلس الإسلامية كلها - حاشا مدينة طليطلة ورية — تابعة لملكة المرابطين بإفريقية.

رضى جمهور الأندلسيين إلى حين - ولحاجة فى أنفسهم - عما آلت إليه البلاد بعد دعوة المرابطين إليها، ولكن قلة من عظماء الأندلس والمثقفين كانوا ساخطين على تلك الحال، فإنهم

كانوا يحكمـون بطائفة من الدينيين المتزمتـين[1] كما كانت تحكم إنجلترا فـي أحد عهودها، ولكن إنجلترا ظفرت بملتون[2] شـاعر هذا العهد، فخفف من شـدته وعبوسـه. اشمأز الشعراء من جفوة البربر وخشـونتهم وجهلهم، فإنهم لم يفهموا روائع أشـعارهم، وإذا حاولـوا التشـبه بملوك الطوائف الأدبـاء البارعين فى ذوقهم المرهف ونقدهم الدقيق، أتوا بما يسـتثير الضحك، ولم ير المفكرون فـي رجوع السـلطة إلى الفقهاء المتعصبين ما يبعـث على التفاؤل، فقد كان هؤلاء أصحاب الرأى والشـورى عنـد المرابطين، فحاربوا كل ما يتصل بالفلسـفة، وجمدوا على أن يفهموا القرآن من تفسـير مفسـر واحد[3]. أما اليهود والنصارى فإنهم أدركوا سريعًا ما يفهم المرابطون من معنى التسـامح، فقد قسـوا فى اضطهادهم، وجردوا عليهم سـلاحين من القتل والنفى، وأما من بقى من الأسـر القديمة ومن فر من السـيف من ملوك الطوائف، فإنهم كانوا فى يأس قاتل حينمـا رأوا هذا الدخيل يعيد إلى أذهانهم أعمال البربر الشـنيعة آخر أيام الخلفاء بقرطبة.

---

(١) يشبههم المؤلف بالبيوريتان أو الأتقياء: وهم صنف من البروتستنت متشدد فى الدين وكان لهم نفوذ أيام حكم كرمويل.

(٢) شاعر إنجليزى من الدرجة الأولى اشتهر بالنقد اللاذع الساخر، ١٦٠٨ ومات سنة ١٦٧٤.

(٣) فـي أخبـار المغـرب المراكشـى: وكان لا يبت لحكمه فى صغـير ولا كبير إلا بمحضـر أربعة من الفقهاء، وقرر الفقهاء عنده تقبيـح علم الكلام، وأمر بإحراق كتب الغزالى لما دخلت الأندلس.

ولكن جمهور الأندلسيين كانوا فى غبطة وسرور لاستيلاء المرابطين على الأندلس. فقد أمنوا على أرواحهم وأموالهم، وذلك شىء لم يستطيعوا تخيله أيام كانت المملكة ممزقة إلى ولايات، وكان أقوى الملوك من يستطيع أن يحمى رعيته حول قلعته، وأيام كانت الطرق غاصة بعصابات اللصوص، وأيام كان النصارى يغيرون على القرى وينهبون البلاد، أما الآن فقد استتب النظام والهدوء ولو إلى حين، وخضع الناس للقانون، وهزم النصارى فعادوا إلى حصونهم، وأخذ الناس مرة أخرى يحلمون بالثروة والرفاهية.

ولكن هذا الحلم كان وهمًا وخيالا باطلا، فإن القدر لم يدخر نجاحًا ولا سعادة لرعية المرابطين: فقد أصاب البربر ما أصاب الرومان والقوط من قبلهم، فإنهم جاءوا إلى إسبانيا غلاظًا شدادًا، لم يعتادوا النعيم والرفه، يتفاخرون بالشجاعة والقوة، ولهم قلوب يملؤها تعصب دينى غضوب ساذج، ولكنهم لم يلبثوا بها إلا قليلا متمتعين بثمار انتصارهم حتى أصيبوا بفساد الأخلاق وانحطاط العزائم الذى أصاب جنود (هانيبال) حينما استناموا إلى لذائذ الحياة فى (كابو)[1]. فقد البربر الميل إلى الحرب والإقدام على الأخطار واحتمال ويلات القتال، أو أقل إنهم فقدوا رجولتهم فى أقصر ما يتصور من زمن، فلم يكن لهم بعد عشرين عامًا جيش يعول عليه

(١) مدينة من أجمل مدن إيطاليا وأمنعها حصانة، حاصرها الرومانيون حتى كاد يهلك أهلها فاضطر هانيبال إلى تسليمها حوالى سنة ٢١٠ ق.م.

فى صد هجمات القشتاليين، بل كان جيشهم حشدًا غير منظم من حطام آدمى وكسالى بائسين أدمنوا الخمر، وخدعوا فتوتهم فبددوها، وأصبحوا عبيدًا لكل شهوة تجعل الرجل جبانًا رعديدًا.

وبدل أن يصونوا النظام كانوا هم أول العابثين بالنظام، فقطعوا الطريق على المسافرين وسرقوا كلما لاحت لهم لائحة، ووصل الضعف بحكامهم أن صاروا تحت سيطرة العواهر من النساء، والطامحين من الفقهاء، فنقضوا اليوم ما أبرموه بالأمس، ومثل هؤلاء لا يطول بهم الحكم: فإن ثورة جامحة قامت بإفريقية للقضاء على المرابطين، وجدد القشتاليون بقيادة ألفونسو «المحارب» غاراتهم على الأندلس. ففى سنة ١١٢٥ عاثت جنودهم فى الجنوب سنة كاملة، وفى سنة ١١٣٣ أحرقوا أرباض قرطبة وإشبيلية وقرمونة، وانتهبوا شريش وأشعلوا فيها النار، وامتدت غزوات النصارى من ليون إلى مضيق جبل طارق، أما الدولة الإسلامية حيال كل هذا فلم تفعل شيئًا، لذلك غضب الأهلون وثارت جموعهم، وطردوا المرابطين من البلاد.

ويقول مؤرخ عربى: «وفى النهاية ... عندما رأى الأندلسيون تحطم دولة المرابطين لم ينتظروا طويلا، فكشفوا حجاب الرياء وأظهروا العصيان وسمى نفسه بالملك واتخذ شعار السلطان كل حاكم صغير، أو زعيم أو رجل ذى شأن يستطيع أن يجمع حوله ثلة من الأنصار، أو تكون له قلعة يحتمى بها عند الحاجة، وصار الملوك

فى الأندلس بعدد ما فيها من مدن: فملك ابن حمدين قرطبة، وابن ميمون قادس، وحكم ابن قسى و «ابن وزير سيدراى» بالغرب، واللمتونى بغرناطة، وابن مردنيش ببلنسية، وبعض هؤلاء من الأندلسيين، وبعضهم من البربر.

ثم اختفى جميع هؤلاء حينما ظهر علم الموحدين الذين أزاحوهم عن عروشهم، وأخضعوا الأندلس جميعًا لحكمهم»[1].

وكان عبد المؤمن قائد الموحدين، هو الذى أزال ملك المرابطين فى إفريقية وإسبانيا.

---

(١) كان مبدأ غزو المرابطين لامتلاك الأندلس فى سنة ٤٨٣، وحكمها منهم يوسف بن تاشفين ثم ابنه على بن يوسف، ثم تولى بعده عمه إسحاق الذى قتله الموحدون سنة ٥٤١.